

دلائل الإعجاز

إنَّما تمَّعبُ مراعاةُ السَّجْعِ والوزنِ ويصعبُ كذلك التَّجْنِيسُ والتَّرصِيعُ إذا رُوعيَ معه المعنى قيلَ له : فأنتَ الآنَ إن عقلتَ ما تقولُ قد خرجتَ من مسألتك وتركتَ أن يستحقَّ اللفظُ المزيَّنةَ من حيثُ هو لفظٌ وجئتَ تطلبُ لصعوبةَ النَّظْمِ فيما بينَ المعاني طريقتاً وتضعُ له علاقةً غيرَ ما يعرفُها النَّاسُ وتَدَّعي أنَّ ترتيبَ المعاني سهلٌ وأن تفاضلَ النَّاسِ في ذلكَ إلى حدِّ وأنَّ الفضيحةَ تزدادُ وتَقوى إذا تُوخِّتُ في حُرُوفِ الألفاظِ التَّعادلُ والتَّلاؤمُ وهذا مِنكُ وهُمُ وذلكَ أنَّا لا نعلمُ لتعادلِ الحروفِ معنىً سوى أن تسلَّمَ من نحوِ ما تجدُّه في بيتِ أبي تمامٍ :

(كريمٌ متى أمدَّه أمُدَّه أو ودَّه والورى ...) .

وبيتِ ابنِ يَسيرٍ :

(وانثنتُ نحوَ عَرفِ نفسِ ذَهولٍ ...) .

وليس اللَّفظُ السليمُ من ذلكَ بمعوزٍ ولا بعزيرِ الوجودِ ولا بالشَّيءِ لا يستطيعهُ إلاَّ الشَّاعرُ المُفلقُ والخطيبُ البليغُ فيستقيمُ قياسهُ على السَّجعِ والتَّجْنِيسِ ونحوِ ذلكَ مما إذا رامَهُ المتكلِّمُ صعبَ عليه تصحيحُ المعاني وتأديةُ الأغراضِ . فقولنا : " أطال اللُّهُ بقاءك وأدام عزَّك وأتم نعمتهُ عليك وزادَ في إحسانه عندك " لفظٌ سليمٌ مما يكُدُّ اللُّسانَ وليس في حُرُوفه استكراهٌ . وهكذا حالُ كلامِ النَّاسِ في كُتُبِهِم ومُحاوَرَاتِهِم لا تكادُ تجدُ فيه هَذَا الاستكراهَ لأنه إنَّما هو شيءٌ يعرضُ للشَّاعرِ إذا تكلَّفَ وتعمَّـلَ فأما المُرسِلُ نفسهُ على سَجِيَّتِهَا فلا يعرضُ له ذلكُ .

هذا والمتعلِّـلُ بمثلِ ما ذكرتُ من أنه إنَّما يكونُ تلاؤمُ الحروفِ مُعجزاً بعد أن يكونَ اللَّفظُ دالاً لأنَّ مراعاةَ التَّعادلِ إنَّما تصعبُ إذا احتيجَ معَ ذلكَ إلى مُراعاةِ المعاني - إذا تأملتَ - يذهبُ إلى شيءٍ طريفٍ وهو أن يصعبَ مرامُ اللفظِ بسببِ المعنى وذلكَ مُحالٌ لأنَّ الذي يعرفُه العقلاءُ عكسُ ذلكَ وهو أن يصعبُ مَرامُ المعنى بسببِ اللَّفظِ فصعوبةُ ما صَعُبَ من السَّجعِ هي صعوبةُ عَرضتُ في المعاني من أجلِ الألفاظِ وذاكَ أنَّه صعبٌ عليك أن توفِّقَ بينَ معاني تلكَ الألفاظِ المُسجَّعةِ وبينَ معاني الفُصولِ التي جُعِلتُ أرفاداً لها فلم تستطعَ ذلكَ إلا بعد أن عدلتَ عن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أو دخلتَ في ضربٍ منَ المجازِ أو